الممارسة السياسية بالحب . وبعلو صوت الرسالة الايديولوجية حتى يغطي على جميع شبكة العلاقات الاجتماعية التي حاول المؤلف نسجها في بداية روايته — طفولة خالد ودراسته الجامعية — تستحيل العلاقات هنا الى سلسلة من الخطب ورباطة الجأش والموقف البطولي . ثم تعود في القسم الاخير من الرواية الى توتر درامي في وصف حياة الاعتقال والتعذيب الذي يتعرض له المقاتلون بعد مذابح جرش وعجلون .

صيغة الغائب والتداعيات الشخصية :

صيغة المفرد الغائب ، هي الصيغة الغالبة على البناء الروائي بأسره . انه الجواب المباشر على البطل الفرد ، الذي يتمحور العمل الروائي على شخصيته . لذلك يكثر التذكر والتداعي ، داخل الفلاش باك الذي يقوم هو بصياغة البنية الروائية. تاركا لصيغة المفرد لتقوم في الحركة البنائية . ولا تشمل هذه الصيغة خالد وحده ، بل تمتد في بعض الاحايين الى سميرة — البطلة الثانية في الرواية . اما الحوار او التأملات الذاتية ، فانها تصبح هنا مجرد علامات ، او فواصل يتوقف عندها العمل بأسره ليستجمع قاعدته الاجتماعية ، أي انها اطار لعلاقات من طرف واحد ، محورها الاساسي شخصية خالد الطافية . أما اطراف الحوار الأخرى فانها مجرد انعكاسات سلبية او ايجابية لافكار هذا البطل . تقود هذه التقنية الفنية مباشرة الى رواية الافكار . فالعلاقات الاجتماعية والممارسة النضالية ، ليست سوى حافز فكري ، يسمح للبطل باسقاط مواقفه السياسية اسقاطا . لذلك لا تأخذ العلاقات الانسانية مداها الكامل . تتوقف دائما عند نقطة وظيفية . فهي جزء من عالم واحد لا يتعدد . ان الاتجاه التوحيدي الغالب حول البطل — النموذج ، يحيل السرد والحوار الى مجرد مداخل لعالم متكامل لا نعلم شيئا عن آلية تكامله . ثورة خالد على الواقع السياسي الذي ينتمي اليه هي ثورة بدون تاريخ . نتعرف من خلال السياق الروائي على بعض النتف التي لا تعطي فكرة متكاملة . لذلك يفرض علينا المؤلف انحيازا مسبقا الى بطله . من هنا تضيع البنية الروائية بأسرها ، ويصبح الاسقاط الفكري — الايديولوجي ، هو المبرر الوحيد لمتابعة القراءة . فأنت مجبر سلفا على اتخاذ موقف صريح من صراعات خالد . وهذا الموقف هو الذي يحدد متابعة القراءة او التوقف عنها . لذلك يحاول المؤلف في تداعيات حياة بطله اضاءة بعض الجوانب الذاتية — الطفولة ، ذكريات الدراسة ، السجون التي دخلها — ثم يضيف بعد العلاقة العاطفية بسميرة . تخدم هذه الاضاءة هدف رسم اطار تاريخي مقبول لكنها تفشل في استنطاق الشخصيات أشياءها بصورة طبيعية . فيغلب الافتعال وتضيع الرؤية الاجتماعية :

البطل — النموذج :

خالد فتحي عزيز ، هو نموذج البطل الايجابي ، لا يخطيء ولا يزلق . انسان ثوري متكامل . في الطرف الاخر تقع شخصية ابي الملاحم . انه الخطأ مجسدا . ازدواجية الالوان الواضحة هذه ، البطل الايجابي والبطل السلبي ، تبرز خارج الرواية . نستطيع ان نقبل هذه الشخصية او ان نرفضها . غير أننا لا نستطيع مناقشتها . انها حالة ايديولوجية . لا تتخلى عن صفتها هذه الا في السجن جزئيا . هناك نكتشف الى جانب خالد ، بطولات المقاتلين الاسرى ، حيث تعلو النبرة الانسانية اليومية ويخفت صوت الادعاء الفكري . واذا كانت خاتمة الرواية مليئة بالتفجر والتحدي ، فان هذا التفجر لا يبرر السياق العام لمجمل العمل الروائي. فالنموذج في رواية واقعية ، يصبح في افضل الحالات بديلا موضوعيا عن الواقع . لذلك يجعل من تفتيت الواقع داخل العمل الفني مبرره الوحيد. فتغيب الرواية الجدلية . وتصبح الممارسة النضالية حالة جامدة. لذلك يضطر المؤلف الى تصوير ابطاله السلبيين بشكل كاريكاتوري ، دون ان يفسح لهم مجالا للدفاع عن أنفسهم . يرفضهم دفعة واحدة ملغيا حيوية الشخصية في الرواية . ان طريقة الاسقاط المسبقة هذه ، لا تسمح سوى بقراءة واحدة للعمل الفني. القراءة من خلال عيني المؤلف. لذلك تتسطح الشخصيات ولا يبقى سوى الرسالة السياسية — الايديولوجية .

الاسقاط السياسي المباشر :

« أدركت بالتجربة ان العمل الذي نقوم به من خارج الارض المحتلة لم يكن يستحق العناء الذي نبذله ، ولا يصح ان يصبح عملنا الاساسي » . بهذه النبرة الاسقاطية يقوم فيصل حوراني على لسان بطله بتقييم تجربة المقاومة . هنا نصل الى صلب